الفصل السادس

التركيب السلالى للمجتمع اليهودى الحديث

هناك حقيقتان أساسيتان تنبعان من الفصول السابقة التى عقدناها حول هذا الموضوع الهام، الأولى هى اختفاء أمة الخزر من وطنها التاريخى، والثانية هى ظهورهم فى الوقت نفسه فى الأقاليم المجاورة لهذا الوطن إلى الشمال الغربى من أعظم تجمع لليهود منذ بداية تشتتهم. وهاتان الحقيقتان مرتبطتان ارتباطا ظاهرا جعل المؤرخين يتفقون على أن الهجرة من بلاد الخزر كانت بلاشك من أسباب نمو الشعب اليهودى البولندى، ويؤيد هذه النتيجة الشواهد التى أوردناها فى الفصول السابقة. ولكننا لا ندرى على التحقيق مبلغ هذه الهجرة بمقارنتها بتدفق اليهود الغربيين ونصيب الاثنين فى التركيب السلالى للمجتمع اليهودى الحديث.

وحوالى نهاية الألف الأولى لميلاد المسيح كانت أهم المستوطنات ليهود أوربا الغربيين قائمة فى فرنسا وبلاد الراين. والراجح أن بعض هذه الجماعات نشأت أيام الرومان، ذلك أن اليهود فيما بين تدمير بيت المقدس واضمحلال الإمبراطورية الرومانية، كانوا قد

انتشروا فى كثير من المدن الكبرى الخاضعة لسلطان هذه الإمبراطورية، وتزود هؤلاء من بعد بمدد من مهاجرى إيطاليا وشمالى أفريقية.

ومن ثم فإن لدينا سجلات منذ القرن التاسع الميلادى تشهد بوجود جماعات يهودية فى جميع أرجاء فرنسا، من نورماندیا حتى بروفانس ثم البحر المتوسط، بل إن جماعة منهم قد عبرت بحر المانش إلى انجلترا فى ركاب غزوة النورمان، والظاهر أنهم جاءوا بدعوة من وليام الفاتح.

وهذا المثال الإنجليزى له مغزاه، ذلك أن العبرة التى نخرج بها منه هى أن مبلغ الأثر الاجتماعى الاقتصادى الذى أحدثه اليهود لم يكن يتناسب بحال مع قلة عددهم. وسرعان ما سيطرت هذه القلة على اقتصاد انجلترا. على أن اليهود هناك لم يكونوا يعتمدون كما حدث فى بولندة على شبكة من القرى اليهودية يملئونها بارباب الحرف المتواضعة والصناع والعمال وأصحاب الخانات من قاع الطبقة الوسطى. أجل لم يكن لهم فى انجلترا جذور تربطهم بالشعب، وإنما كانوا يسيطرون على رءوس البلاد، وما حدث فى انجلترا بهذا الخصوص ملخص لما حدث فى فرنسا وألمانيا. ذلك أن اليهود هناك كانوا مثل الزواج يبدأ بشهر العسل ثم ينتهى بالشقاق والطلاق، تمنح لهم الامتيازات أول الأمر لأنهم يعلمون السر فى دوران عجلة الاقتصاد، حتى لقد قال فيهم الكاتب المشهور سيسل روث: «إن تجارة

أوربا الغربية فى العصور المظلمة كان أغلبها فى يد اليهود، ولا نستثنى من ذلك تجارة الرقيق، وكانت كلمة يهودى فى مواثيق الملوك الكارلوفنجيين صنوًا لكلمة تاجر».

وفى أيام شهر العسل هذه أرسل الملك شارلمان بعثة تاريخية سنة ٧٩٧م إلى الخليفة هارون الرشيد فى بغداد لعقد معاهدة صداقة. وكانت البعثة مكونة من يهودى هو إسحق، ومن اثنين من نبلاء المسيحيين. ثم جاءت النهاية المريرة، فقد طرد الملك فيليب الجميل اليهود من مملكة فرنسا سنة ١٣٠٦م . صحيح أنه قد سمح لبعضهم بالعودة إلى فرنسا، ولكن الاضطهاد حل بهم مرة أخرى، وما وافت نهاية هذا القرن حتى برئ الفرنسيون أوكادوا من اليهود.

ونحن إذا عدنا إلى تاريخ اليهود فى ألمانيا لم نجد بين أيدينا تاريخًا علميا شاملا عن يهود ألمانيا، ولو أننا نلمح بصيصًا من الضوء عن توزيع اليهود الغربيين الإقليمى فى ألمانيا أيام تلك الفترة الحرجة حين هاجر الخزر اليهود إلى بولندة وبلغت هذه الهجرة أوجها.

***

فقرابة سنة ٩٠٦ نسمع بوجود اليهود فى سبيرس وورمز ثم بعد ذلك فى تريف ومتز وستراسبورغ وقد انحصروا فى شريط ضيق من الأرض فى الألزاس على طول وادى الراين. وزار الرحالة اليهودى بنيامين التطيلى هذا الإقليم فى منتصف القرن الثانى عشر

وكتب يقول: «فى هذه المدن يوجد كثير من الإسرائيليين، حكماء وموسرين». ولكننا لا نعرف عددهم، والحق أن هذا العدد كان قليلا جدًا.

وما وافت نهاية القرن الحادى عشر حتى كانت الجماعات اليهودية فى ألمانيا تنجو بجلدها بشق الأنفس من هبّات الرُعاع التى اقترنت بالحرب الصليبية الأولى سنة ١٠٩٦.

وكان اليهود فى بلاد الراين يلقى بهم فى معاصر النبيذ فتعصرهم عصرًا حتى الموت، ويعمد الآباء منهم إلى قتل أولادهم هربًا من ذلك، كما كان الأزواج يقتلون زوجاتهم، ومن كان يجبن منهم على الانتحار يرضى بالتعميد والدخول فى النصرانية.

وهكذا نتبين أن عدد اليهود فى بلاد الراين كان قليلاً حتى قبل الحرب الصليبية الأولى، ثم ازداد قلة بعد أن قُذف بهم إلى معاصر النبيذ. ونحن لا نجد من الوثائق ما يدل على هجرة جماعات يهودية من ألمانيا الغربية إلى ألمانيا الشرقية.

***

ثم حل القرن الثالث عشر الميلادى فانتعش فيه اليهود بعض الانتعاش، إذ نسمع لأول مرة بوجود يهود فى الأقاليم المجاورة لبلاد الراين، ثم البلاتينات وفرابيورغ، وأولم، وهيدلبرغ وغيرها. ولكن هذا

الانتعاش كان قصير الأمد، ذلك أن القرن الرابع عشر الميلادى أتى معه بنكبات جديدة حلت بيهود فرنسا وألمانيا.

وأولى هذه النكبات هى طرد الملك فيليب الجميل لجميع اليهود من أملاكه، فقد كان هذا الملك يعانى من أزمة اقتصادية وقلق اجتماعى شديد، فحاول أن يجد علاجًا لذلك باستنزاف اليهود فابتز منهم ١٠٠,٠٠٠ جنيه سنة ١٢٩٢ ، و٢١٥,٠٠٠ سنة ١٢٩٥، وسنة ١٢٩٩ ، وسنة ١٣٠٢، وسنة ١٣٠٥ ، ثم استقر على علاج شاف لفك أزمته المالية، فأصدر فى ٢١ يونية سنة ١٣٠٦ قرارًا سريًا بالقبض على جميع اليهود فى مملكته فى يوم معلوم ومصادرة أملاكهم وطردهم من البلاد، وتم طردهم بعد ذلك بأسابيع قليلة، وهاجر الفارون إلى أقاليم فى فرنسا خارج أملاك الملك وهى: بروفانس، وبرغنديا، وأكويتين وإقطاعات أخرى قليلة. على أنه ليس بين أيدينا سجلات تاريخية من أى نوع تدل على أن اليهود الألمان ازداد عددهم نتيجة للمحن التى نزلت بالجماعة اليهودية فى فرنسا وما انتهى إليه الأمر بالقضاء عليها. وكذلك لا نجد مؤرخًا واحدًا زعم قط بأن اليهود الفرنسيين التمسوا طريقهم إلى بولندة مارين بألمانيا سواء فى هذه المناسبة أم فى أى وقت آخر.

وما وافت نهاية القرن الرابع عشر حتى خلت فرنسا وانجلترا أو كادتا من اليهود.

أما النكبة الثالثة التى وقعت فى هذا القرن المشئوم فهى الموت الأسود الذى أهلك ما بين سنتى ١٣٤٨ و ١٣٥٠ ثلث سكان أوربا، بل لقد بلغت نسبة من أهلكهم فى بعض الأقاليم الثلثين. وقد وفد هذا الوباء المخيف من شرقى آسيا مارًا بالتركستان ثم انطلق يفتك باوربا، غير مفرق بين جنس وجنس، وإن كان قد تخيّر اليهود وخصهم بالخراب والدمار، ذلك أنهم كانوا من قبل قد اتهموا بذبح أطفال المسيحيين عملاً بمقتضيات شعائرهم، وأما بعد فإنهم اتهموا وقت حلول هذه النكبة بتسميم الآبار لنشر الموت الأسود، فاشعلت فيهم النار جملة فى جميع أنحاء أوربا، وجروا على الانتحار خوفًا من إحراقهم أحياءً.

ولم يعد عدد سكان أوروبا بالمتناقص إلى ما كان عليه قبل تفشى وباء الطاعون إلا فى القرن السادس عشر. أما اليهود فقد تعرضوا لمصيبتين: فتك الطاعون بهم وإحراق المسيحيين لهم، ولم يبق منهم إلا نسبة قليلة.

ونستطيع أن نقول: إن المؤرخين قد جعلوا الموت الأسود الذى حل بعد الحرب الصليبية الأولى هو السبب فى قيام الشعب اليهودى الشرقى.

وظل غربى أوروبا بعد استئصال شافة الجماعات اليهودية القديمة فى فرنسا وألمانيا فى أعقاب الموت الأسود، خاليًا من اليهود عدة قرون اللهم إلا بعض بقع منعزلة، ونستثنى من ذلك أسبانيا.

ومن ثم فإننا نقول دون أن نخشى الزلل: إن الفكرة التقليدية التى تزعم بأن جمهرة اليهود الغربيين قد خرجوا من بلاد الراين إلى بولندة مارين بألمانيا، فكرة لاسند لها من التاريخ.

تيارات متعارضة:

ويستطيع المرء فى يسر أن يدرك من الشواهد التى ذكرناها فى الفصول السابقة السبب فى أن المؤرخين البولنديين، وهم أقرب الناس صلة بالمصادر، متفقون على أن «الفريق الأكبر من السكان اليهود فى العصور الأولى، أصلهم من بلاد الخزر» بل لقد ذهب أحدهم إلى أن اليهود الشرقيين كلهم من أصل خزرى. وقد يصدق هذا القول لو لم نجد نظيرًا واحدًا له هو الجماعة اليهودية المنكوبة التى نزلت فى فرنسا وبلاد الراين. على أن الأمور تعقدت فى العصور الوسطى المتأخرة بقيام وسقوط المنازل اليهودية فى جميع أنحاء المملكة النمساوية المجرية السابقة وفى البلقان. ذلك أننا لا نجد عددًا كبيرًا من السكان اليهود فى فيينا وبراغ فحسب، بل نجد عددًا لا يقل عن ذلك فيما لا يقل عن خمس قرى يهودية فى الألب الكارينثية وفى جبال ستيريا. وما وافت نهاية القرن الخامس عشر حتى طُرد هؤلاء اليهود من هذه البقاع فهاجروا إلى إيطاليا وبولندة وهنغاريا.

ولكن من أين قدم أولئك اليهود؟ لاشك أنهم لم يقدموا إلا من الغرب.

والحلقة المفقودة فى هذا التعداد هى للمرة الثانية بلاد الخزر التى كانت، كما أسلفنا، ملتقى ومعبرًا لليهود المهاجرين من بوزنطة وبلاد الخلافة الإسلامية. وقد رفض بعض العلماء الراسخين الأسطورة التى ردت أصل اليهود الشرقيين إلى بلاد الراين. ونخرج من هذه المسألة التى ثار حولها الجدل بأن المنازل الألبية لليهود كانت فى أغلب الاحتمالات شُعبًا من الهجرة الخزرية العامة صوب بولندة ثم انتشرت خلال عدة قرون والتمست طرقًا مختلفة، طريق أوكرانيا وطريق الأقاليم الصقلبية شمالى بلاد المجر، بل ربما طريق البلقان، وثمة أسطورة رومانية تقول إن ثمة غزوة شنها جيش يهودى فى تاريخ مجهول على رومانيا.

***

وهناك أسطورة عجيبة كل العجب تتصل بتاريخ يهود النمسا، وقد روى هذه الأسطورة إخباريون مسيحيون فى العصور الوسطى، وتواترت تواترًا جديًا على يد مؤرخين فى عهد متأخر يرجع إلى بداية القرن الثامن عشر. وفحوى هذه الأسطورة أن الولايات النمساوية كانت تحكمها سلسلة من الأمراء اليهود. وقد اشتمل

التاريخ الإخبارى النمساوى على قائمة لا يقل عدد هؤلاء الأمراء فيها عن اثنين وعشرين أميرًا .

ولكننا نتساءل عن أصل هذه الأسطورة العجيبة؟ والرد على ذلك قال به أحد العلماء البارزين وخلاصته أن نمو هذه الأسطورة ورسوخها عدة قرون دليل على أنها ظلت حية فى الضمير القومى لبلاد النمسا القديمة منبئة بوجود اليهود فى هذه البلاد على نهر الدانوب الأعلى فى الأيام الغابرة. ولعل أمواج الهجرة المختلفة التى خرجت من بلاد الخزر فى شرقى أوربا قد مضت فى اجتياحها حتى بلغت سفوح جبال الألب، وهذا يفسر النزعة الطورانية فى أسماء هؤلاء الأمراء .

وقد ظلت بلاد النمسا ما يربو على نصف قرن، أى حتى سنة ٨٥٥م خاضعة للسيطرة الهنغارية. وكان المجر قد بلغوا بلادهم الجديدة حتى سنة ٨٩٦م هم والقبائل القبرّية الخزرية التى كان لها سلطان على هذه الأمة، ولم يكن الهنغاريون فى ذلك الوقت قد تنصروا بعد، وكانت الديانة الوحيدة القائلة بالتوحيد التى يألفونها هى اليهودية الخزرية.

***

وثمة شاهد آخر ينقض الزعم بأن أصل اليهود الشرقيين يرجع إلى فرنسا وبلاد الراين، وهذا الشاهد نلتمسه فى تركيب اللغة

اليدية، وهى اللغة الشعبية لجماهير اليهود التى كان يتحدث بها الملايين قبل تحريقهم، ولا تزال حية بين الأقليات السلفية فى الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة.

واللغة اليدية مزاج عجيب من العبرية والمانية القرون الوسطى، وعناصر صقلبية وغيرها، وكانت تكتب بالحروف العبرية، أما وهذه اللغة فى سبيلها الآن إلى الاندثار فإنها أصبحت موضع دراسات علمية فى الولايات المتحدة وإسرائيل .

وإذا نظرنا إلى هذه اللغة لأول وهلة نجد أن غلبة الكلمات الألمانية عليها تناقض ما ذهبنا إليه بشأن الأصول الشرقية للشعب اليهودى.

على أن العكس صحيح أيضا. ذلك أن الدراسة العميقة لمفردات هذه اللغة والأصوات فيها ونحوها وصرفها تثبت أنه لا توجد فيها عناصر مستقلة من أجزاء ألمانيا الحافة بفرنسا، وليس فى اللغة اليدية كلمة واحدة تسربت من أقاليم غربى ألمانيا فيما حول فرانكفورت.

والحق أن تاريخ اليهود الألمانى الأشكنازى يجب أن يراجع، وما من ريب فى أن القول التقليدى بأن الهجرة السابقة لليهود الاشكنازى جاءت من فرنسا يدخل فى باب الأخطاء التاريخية التى تستوجب التصحيح.

وقد ذهب عالم كبير من العلماء المختصين فى هذه اللغة إلى أن الأثر الغالب فى اللغة اليدية هو ما نعرفه باللهجات الألمانية الشرقية

الوسطى التى كان الناس يتحدثون بها فى أقاليم الألب ، أى فى النمسا وبافاريا حتى القرن الخامس عشر الميلادى، ومعنى ذلك أن العناصر الألمانية التى دخلت فى اللغة اليهودية المهجنة أصلها يرجع إلى إقاليم ألمانيا الشرقية المجاورة للمنطقة الصقلبية فى شرق أوروبا.

ثم إن اللغة اليدية نمت خلال القرون نموًا متكاثرًا بلا ضابط وراحت تستوعب فى نهم كلمات وعبارات ومصطلحات من البيئة الاجتماعية المحيطة بها حتى تصبح لغة مشتركة. على أن العنصر الثقافى والاجتماعى السائد فى المحيط البولندى أيام القرون الوسطى كان هو العنصر الألمانى. ذلك أن الألمان دون سواهم كانوا بين السكان المهاجرين أكثر تأثيرًا من اليهود اقتصاديًا وعقليا. وقد رأينا منذ عهد أسرة بياست، وخاصة فى عهد كازيمير الأكبر، كيف مهدت جميع الأسباب لاجتذاب المهاجرين حتى يعمّروا الأرض ويقيموا مدنا جديدة. وكانت هذه المدن الجديدة مثل كراكاو ولمبرغ (لفوف) قد أقامها وحكمها مهاجرون من الألمان، وكانوا ينعمون إلى حد كبير بحكم ذاتى بلدى. ويقال إن أربعة ملايين من الألمان على الأقل قد هاجروا إلى بولندة وزودوها بطبقة من البورجوازية الحضرية .

ولم يقتصر الأمر على البورجوازية المتعلمة بل إن رجال الكهنوت كان يغلب عليهم العنصر الألمانى. وإن المرء ليذكر كيف كانت الثقافة الألمانية تحتل مكانة رفيعة بين المفكرين الروس فى القرن

التاسع عشر. ومن ثم يسهل علينا أن نعرف لمَ كان المهاجرون الخزر الذين تدفقوا على بولندة فى القرون الوسطى مضطرين إلى تعلم الألمانية إذ شاءوا أن ييسروا أمر حياتهم؟.

وقد جاء الأستاذ بولياك بنظرية مكملة لما أسلفنا فيما يتعلق بالأصول الأولى للغة اليدية، وهذه نظرية جديرة بأن تذكر ولو أنها أقرب إلى المسائل الخلافية. يقول بولياك «إن صورة اليدية الأولى قد ظهرت فى الأقاليم القوطية للقرم الخزرية» فقد كانت ظروف الحياة فى هذه الأقاليم قمينة بأن تحدث تجميعًا للعناصر الألمانية واليدية قبل قيام المستوطنات فى مملكتى بولندة وليتوانيا بمئات السنين. وضرب بولياك لذلك شواهد عدة منها أن الرجل الألمانى كان يستطيع أن يتحدث مع الرجل القوطى من القرم كما كان الرجل من فلورنسة يستطيع أن يفهم لغة الإيطالى القادم من جنوة.

***

وقد كتب عالم من العلماء أننا نستطيع أن نقول: إن العصور المظلمة اليهودية قد بدأت بعصر النهضة فى أوربا.

صحيح أنه حدثت قبل ذلك مذابح ونكبات مثل الموت الأسود وغير ذلك من أشكال الاضطهاد أيام الحروب الصليبية إلا أن هذه الهبات النافية للقانون من أعمال العنف الجماهيرية كانت تقاوم من السلطات مقاومة إيجابية أو تتجاوز عنها السلطات بموقفها

السلبى، وقد حدث منذ بداية الحركة المناهضة للإصلاح الدينى أن عومل اليهود رسميا معاملة غير إنسانية يمكن أن نقارنها فى كثير من الوجوه بمعاملة المنبوذين فى الهند.

وفى بولندة استمر شهر العسل بالنسبة لليهود الذى استهله كازيمير الأكبر مدة أطول مما حدث فى الأقطار الأخرى، فما وافت نهاية القرن السادس عشر حتى كان هذا الشهر قد ولى وانقضى، فقد ازدحمت القرى والأحياء اليهودية وانتهت معركة الهاربين من مذابح القوازق فى القرى الأوكرانية إلى تدهور حالة الإسكان واضمحلال الاقتصاد، مما أحدث موجة جديدة من الهجرة الحاشدة إلى هنغاريا، وبوهيميا، ورومانيا، وألمانيا، حيث كان اليهود قلة مشتتة متفرقة، بعد أن هلكوا أو كادوا يفعل الموت الأسود.

وهكذا استؤنف السير الكبير للهجرة إلى الغرب ، وظل ماضيًا قرابة ثلاثة قرون حتى الحرب العالمية الثانية، وأصبح المنبع الأكبر للجماعات اليهودية التى تعيش الآن فى أوربا والولايات المتحدة وإسرائيل. وقد أبطأ سير هذه الهجرات ولكن قتل المواطنين الآمنين فى القرن التاسع عشر أحدث حافزًا جديدًا للإسراع.

وهذه الشواهد جميعًا التى سقناها فى الفصول السابقة تؤيد المؤرخين المحدثين- سواء أكانوا نمساويين أم إسرائيليين أم بولنديين- وذلك فى قولهم كل بمعزل عن الآخر، بأن الفريق

الأكبر من الشعب اليهودى الحديث ليس أصله من فلسطين بل من القوقاز، كما أن المجرى الأكبر للهجرات اليهودية لم يفض من البحر المتوسط عابرًا فرنسا وألمانيا إلى الشرق، ثم انقلب راجعًا مرة أخرى، بل هو قد تحرك فى خطى ثابتة صوب الغرب، من القوقاز عابرًا أوكرانيا إلى بولندة ومنها إلى وسط أوربا. وعندما قامت حركة الاستيطان الحاشدة فى بولندة على نحو لم يكن متوقعًا ولا منتظرًا لم يكن عدد اليهود فى الغرب مما يعتدّ به، على حين كانت أمة بأسرها فى الشرق تتحرك إلى حدود جديدة.

وقد يكون من الحماقة أن ننكر أن يهودًا من أصول مختلفة أسهموا فى قيام الجماعة اليهودية الحالية فى العالم، إلا أن الشواهد المجتمعة تجعل المرء ميالا إلى الاتفاق مع إجماع المؤرخين البولنديين فى قولهم: «إن الفريق الأكبر من اليهود فى العصور الأولى أصله من بلاد الخزر» ومن ثم فإن نصيب الخزر فى التكوين السلالى لليهود كان عنصرًا أساسيًا، بل كان فى جميع الاحتمالات هو العنصر السائد.